النساء والإسلام، رؤية إصلاحية

أسماء المرابط

أكتوبر 2015

FONDATION POUR L'INNOVATION POLITIQUE
fondapol.org

FONDATION POUR
L'INNOVATION
POLITIQUE
fondapol.org

www.fondapol.org

أسماء المرابط

المرأة في الاسلام،
رؤية إصلاحية

ترجمة
عبد الحق الزموري

أكتوبر 2015

مؤسسة التجديد السياسي (*Fondapol*)
هي مركز بحث وتفكير (ثنك تانك)
ليبرالي تقدمي أوروبي

نيكولا بازير: رئيسا
غريغوري شرتوك: نائب رئيس
دومينيك راينيي: مديرا عاما
لورونس باريزو: رئيسة المجلس العلمي والتقييم

تنشر المؤسسة هذا الكتيب في سياق اهتمامها بالقيم

المستشار العلمي لسلسلة قيم الإسلام هو عالم الإسلاميات في جامعة ستراز بورغ إيريك جوفروا

العنوان بيد الخطاط راني روابح

المرأة في الإسلام، رؤية إصلاحية

أسماء المرابط

طبيبة، كاتبة ومديرة مركز الدراسات والبحوث النسائية في الإسلام (*CERFI*) التابع للرابطة المحمدية لعلماء المغرب

المقدمة

من البديهي اليوم أن موضوعة النساء في الإسلام بقيت رهينة رؤية ثنائية اختزالية جدا. فبين رؤية إسلامية تقليدية ترفض كل إصلاح خوفًا من فقدان قيم الهوية المُؤسْطَرَة بشكل كبير، ورؤية من يُسمّون بال"حداثيين" التي تُدين الديني، والإسلام بصورة خاصة، بكل الشرور، يبقى صوت الغالبية العظمى من النساء المسلمات، بداية وقبل كل شيء، هو المهمَّش.

إن محورية الجدل حول هذه الموضوعة "وتغطيتها الإعلامية المفرطة" هو ما يجعل تلك المهمة أكثر صعوبة، ولا يسمح دائما بالقيام بتحاليل موضوعية نسبيا، أو هادئة على الأقل. لا حاجة لنا فعلا أن نبيّن – مرة أخرى – كيف أن موضوعة "المرأة في الإسلام" تبقى الحلقة الأضعف في شبكة قراءة الإسلام، وإلى أي درجة انحدرنا، عبر قوة الأفكار الشعبوية المسبقة، في تقليص الإسلام في حدود

العلاقة غير العادلة التي يقفها من النساء. في حين ينسى هؤلاء أن عدم المساواة بين الرجل والمرأة هو — بدرجات متفاوتة بالطبع — مُعطى كوني يخترق كل الثقافات والأديان والأيديولوجيات.

"النساء المسلمات مسحوقات في الإسلام": ذاك حُكم نهائي، متجذّرٌ بشكل واسع في المخيال المعاصر لغير المسلمين، ويمثّل مرتعا خصبا للإسلاموفوبيا المُعوْلَمَة والتبسيطية. وفي المخيال الآخر، المسلم هذه المرة، تبقى تلك المسألة سجينة البلاغة التمجيدية المتواترة التي يصبح فيها رفض الآخر ونبذ القيم التي يقال عنها كونية — وبشكل خاص مفهوم المساواة بين الرجل والمرأة — أرضية لأزمة هوية لم تتوقف عن زعزعة العالم الإسلامي.

وتبقى مسائل المساواة بين الرجل والمرأة، كما حرية الأديان وإصلاح الفكر الإسلامي بعامّة، وهي قضايا يُتَعامَلُ معها في أغلب البلدان الإسلامية كمجالات محرّمة، تحت السلطة التاريخية — السياسية المسكوت عنه دينيًا، وتصطدم بمطبّات سوسيولوجية رئيسية. وبالفعل، فإن التأثير الكبير الذي يتركه الديني على طينة ثقافية حساسة جدا لمسائل الهوية لا يشجع دائما الحوار حول المسائل الحقيقية المتعلقة بالمحتوى.

كما لا يجب أن تفوتنا الضغوط الخارجية، وهي في الغالب غربية المنشأ، التي يُنظر لها في الغالب على أنها تدخل غير مقبول يجعل كل دعوة لتحرير المرأة المسلمة دعوة مشبوهة، باعتبارها من آخر حصن للهوية الإسلامية.

وجدت المرأة المسلمة نفسها بين فكّي كماشة، ولم يعد يسيرا اليوم على كثير منهن مغادرة تلك الدروب المطروقة والتحرر من شبكات القراءات النمطية. نساء مسلمات يجدن أنفسهن، في أغلب الحالات، حائرات، بل ممزقات، بين رغبتهن في الانعتاق والحرية، وحاجتهن إلى مرجعية هويوية وتجذّر روحاني.

وبالرغم من كل تلك العقبات فإن نهوضا نسويا في الإسلام هو بصدد التشكل. صحيح إن هذه الديناميكية لا تزال أقلّيوية، ولكن تجديدها الرئيسي يكمن اليوم في كون المطالب النسوية قد قطعت مع الخطاب الإسلامي التبجيلي التقليدي السائد، ومع نوع من الخطاب النسوي المهيمن والموسوم بـ"الكوني"، الذي يفرض طريقا واحدا للتحرر، هي طريق تُقصي كل إحالة على الديني طبعا.

يتعلق الأمر هنا إذا بطريق حقيقية ثالثة مدعومة بنوع من الديناميكية التي بدأها نساء مسلمات والتي

تشجع على مسالك تحرر انطلاقا من إعادة قراءة نسائية، بل نسوية، وإصلاحية ذات مرجعية مسلمة. وهذه الطريق الثالثة ذات المنحى الإصلاحي هي اليوم، داخل المجتمعات المسلمة، وأيضا في أوساط الجاليات المسلمة في الغرب، واحدة من الطرق القليلة التي تُمكّن من المساهمة النوعية في ديناميكية المصالحة بين الإسلام وحقوق الإنسان وتحدّي الحداثة المُعولَمَة.

التجديد النسوي في ميزان الشك

غني عن القول إن النساء المسلمات اللاتي تحملن هذا الخطاب المجدد تواجهن تحديات متعددة، من بين أهمها الوقوف في جبهتين في آن: جبهة "خارجية" تُناضلن فيها ضد الصور الإعلامية المنمّطَة والمُبخِّسة، وجبهة "داخلية" التي لا بد أن تنكبّ فيها على تفكيك الخطاب التقليدي حول "المرأة والإسلام" الذي تنادي به الأيديولوجية الإسلامية التقليدية المهيمنة. هو إذن سجلّ مزدوج، سجل حقوق الإنسان الكونية وسجلّ المرجعية الدينية الذي يسعى هذا الاتجاه النسوي الجديد إلى بنائه وتشكّله.

ولا بد من الإشارة إذًا إلى وجود ديناميكية نسائية، في العالم الإسلامي ولكن أيضا في أوساط الجاليات المسلمة في الغرب، وهي بعيدة عن أن تكون مُوحَّدَة، تبدو وكأنها مخترَقَة بحساسيات مختلفة كل واحدة منها، وبطريقتها الخاصة، تعيد النظر في الجمود الاجتماعي السياسي التقليدي الذي يتحكم في وضعية النساء.[1] تكمن الخاصية الأساسية لهذا الانبعاث النسائي في الإسلام في الإرادة المُعلَنَة للنساء — لاهوتيات،

[1]) Voir Zahra Ali (dir.), *Féminismes islamiques*, La Fabrique, 2012

جامعيات، مناضلات جمعياتية...- في تطوير خطاب خاص بهن. لا بد من قول ذلك بوضوح: لم تعد النساء المسلمات تتحمّلن اعتبارهنّ "موضوعات بحث"، أن يكنّ "كبش فداء"، أن يلاحظن كيف يتكلم الآخرون عنهن وإحالتهن الدائمة إلى نفس الرمزية، القاصرة الأبدية، والذات السلبية لتاريخهن، أسيرات الخطاب الذي يُنتجه الآخرون ويعيدون إنتاجه بحسب الأحداث الجغراسياسية. فالخطاب الذي يدعو إليه هذا الجيل الجديد من النساء المسلمات هو خطاب، عكس الفكرة المروّجة عن إسلام مولّد للتفرقة، يؤكّد على محورية الديناميكية التحررية من داخل المرجعية الإسلامية، وعلى أهميتها.

إن التمكن من الولوج إلى المصادر النصية، وخاصة إلى البعد الأخلاقي في القرآن، جعل أولئك النسوة يفهمن أنْ ليس الرسالة الروحية للإسلام حبيسة الألفيات من الزمن هي المستهدَفَة، بل كل التأويلات البشرية التي تراكمت في الإنتاج الديني — وفي العقليات أيضا — والتي أصبحت أولوية بفضل سياقات اجتماعية وثقافية وسياسية معادية بنيويا

لوجود المرأة في فضاء المعرفة الدينية.[2]

يتعلق الأمر إذا بمقاربة إصلاحية جديدة للشأن الديني، وهي تلك القادرة – عبر المنطق والتفكير الثيولوجي التحرري قطعا – على تدبّر كيف تعيش في ظل الإسلام في الحداثة، وخاصة فيما تعلق بالنساء وحقوقهن في المساواة.

الرؤية الإصلاحية: أبعاد جديدة ومقاربة معاصرة للرسالة الروحية في الإسلام

أبعاد جديدة

بقيت موضوعة النساء، منذ عصر "النهضة العربية" (منتصف القرن التاسع عشر)، في الغالب محدودة في سجل الرؤية التقليدية والمحافظة التي ركزت على "حقوق المرأة المسلمة وواجباتها"، وذلك بالرغم من

[2]) أنظر مثلا كل الأعمال المنجَزَة من قبل مسلمات جامعيات، كالأمريكية أمينة ودود، والباكستانية أسماء بارلاس، والإيرانية زيبة مير حسيني، ولكن أيضا الشبكات النسوية مثل المجموعة الدَوْلية للبحث والتفكير حول المرأة في الإسلام (*Gierfi*)، بالنسبة للمجال الفرنكفوني (www.gierfi.org)، أو المساواة في ماليزيا (www.musawah.org) أو أيضا الكرامة في الولايات المتحدة الأمريكية .(www.karamah.org)

المقاربة "التقدمية" لبعض العلماء المصلحين.[3]

كانت الرؤية الإصلاحية لعصر النهضة نتاجًا لإيديولوجية "مقاوِمة" في مواجهة مثال التحرر المفروض من المستعمر، أكثر منه فكرا إصلاحيا حقيقيا حول موضوعة المرأة في المجتمعات العربية الإسلامية. ومن المهم اليوم تفكيك تلك المقاربة التقليدية التي بقيت طويلا تحت هيمنة قراءة مسيّسة، عقائدية واستعمارية، وذلك باقتراح مقاربة غير استعمارية وإصلاحية لموضوعة النساء في الإسلام.

ومن أجل ذلك نعمل هنا على إعادة دراسة الإطار التاريخي للوحي، متجاوزين العناصر الأسلوبية الخاصة بالخطاب الإسلامي المحافظ حول النساء، لنتمكن، بالنهاية، من إعادة إدماج موضوعة النساء في الأخلاقية العامّة للرسالة الروحية.

دراسة نقدية للإطار التاريخي للوحي القرآني

من المهم جدا تحليل هذا الإطار، لنتمكن من المسك

[3]) منهم على سبيل الذكر محمد عبده من مصر، وعلال الفاسي من المغرب اللذين اقترحا في ذلك العصر إلغاء التعدد، وهو أمر مرفوض بشدة اليوم، في أغلب مجلات الأحوال الشخصية في العالم الإسلامي (ما عدا تونس). ففي المغرب سمح قانون الأسرة لسنة 2004 بالتعدد مع تقييده بشروط.

بشكل أفضل بالمبادئ والغايات الصادرة عنه، والقيام بقراءة سياقية له. لم يكن التاريخ الإسلامي التقليدي الرسمي، في ظل هيمنة الإكراهات السياسية، ملائما لإعادة قراءة نقدية حقيقية لتلك الفترة. ومن ناحية أخرى، فغالبا ما نرى اليوم، ضمن الجدل القائم حول موضوعة النساء، نوعا من الميل نحو مقارنة مفهوم المساواة، كما تعبِّرُ عنه التشريعات المعاصرة، بمعطيات بعض الآيات القرآنية "القائلة بعدم المساواة". ففي حين ننسى أن القرآن، وبالرغم من التأثير الحقيقي الذي لا يزال يتمتع به على المعيش اليومي لملايين الأشخاص، فإنه يبقى نصا أوحي به في سياقٍ اجتماعي مخصوص عرفته الجزيرة العربية في القرن السابع. وبالتالي ففي ضوء ذلك السياق، وأيضا في ضوء المسح الميداني لحالة ما تبقى من الحضارة الإنسانية في تلك الفترة، يمكننا تقييم مبادئ المساواة/التفاوت التي كانت تحملها الرسالة الروحية للإسلام.

لذلك علينا أن نتذكر دائما أسباب النزول التي ظهرت فيها كثير من أحكام القرآن مُجدِّدة تماما بالنظر إلى التقاليد التمييزية التي كانت تتحلى بها الشعوب العربية في تلك العصور. فقد كانت شبه الجزيرة العربية محكومة بنظام قبلي كانت سلطة الأب والعصبية

والحروب القبلية هي المعايير الاجتماعية الوحيدة المعتَرَف بها. وجاء الإسلام لقلب ذلك النظام، ليس فقط على المستوى الروحي والتعبّدي، بل أيضا، وبالأساس، في مستوى شروط العدالة وإعادة النظر في النظام القبلي السائد في ذلك الوقت، والقائم على الهيمنة والتفاوت. أتى الوحي وسلوكات نبي الإسلام — وهي منحازة تماما لصالح المرأة — ليدفع عددا كبيرا من القواعد الاجتماعية السابقة عن الإسلام في ذلك العصر، والتي تشبه إلى حدٍ ما تعرفه مناطق أخرى من العالم كان فيها التمييز ضد المرأة سائدا.

أول تلك العادات التي جاء الوحي ليحاول تعديلها هو مفهوم "العار"، الذي لا يزال منتشرا في بعض مناطق العالم العربي، حيث يحتل مفهوم "الشرف" مستوى رمزيا عاليا في الذهنيات، وينعكس بالأساس على جسم المرأة، محل "شرف" العائلة والقبيلة.

تُعتَبَرُ المرأة عادة، قبل الإسلام، كائنا مذموما، تحت الوصاية القانونية من الولادة إلى الممات. كانت تُحتَسَبُ ضمن "غنيمة الحرب"، وفاقدة لكل حق في الميراث، بل هي جزء من "الأشياء" التي يرثها الرجال. كان الطلاق حقًا مخصوصا للرجال؛ والتعدد، وهو حق غير مشروط، لا حد له ولا يخضع لشروط. كما

لم يكن يُسمَحُ للمرأة بأي مشاركة إجتماعية.

جاء الوحي القرآني ليحاول التصدي لبعض تلك العادات، ولمقاومة أنواع التمييز الأكثر فضاعة، أو أحيانا العمل على تقليص نتائجها، عبر إقرار منهجية في تحريرٍ تدريجي طيلة الثلاثة وعشرين سنة التي نزل فيها الوحي. وبذلك يؤكد الإسلام على سبيل المثال، وبشكل قاطع، على المساواة الروحية بين المرأة والرجل. ولم يمنع ذلك بعض النساء المسلمات في ذلك الزمن، مدفوعات بالنَفَس التحرري للرسالة الروحية الجديدة، من الشكوى المباشرة إلى النبي من النبرة "الذكورية" العالية الموجودة في القرآن، ومن نقد الوحي بشكل علني.لم يتأخر الردّ، إذ نزل الوحي بآيات تحدثت عن جنس النساء بشكل واضح كجواب عن تلك المطالب الأنثوية والنسوية في بدايات الوحي.[4] ولا من التذكير أن تلك المطالب النسائية غير واردة أصلا اليوم في العالم الإسلامي.

كما سيضرب الوحي القرآني المَثَلَ بنساء طبعوا

---

[4]) أنظر على سبيل المثال سورة الأحزاب؛ آية 55. ولمزيد من التفاصيل في المجال، أحيل على كتابي *Le Coran et les femmes. Une lecture de libération* الصادر عن دار التوحيد للنشر، 2008.

مسار التاريخ. لذلك نجده يتحدث عن نماذج نساء ارتَقَوْا مرتبة رموز الحرية والاستقلال والحَوْكمة الرشيدة، نساء ترمز إلى الحب والتضحية والوَلايَة.[5] ونادرا ما يقع إبراز هذا الرمز النسائي، كغيرها من النساء المذكورات في القرآن، في التعليم الديني أو في الخطاب الإسلامي المعاصر، الذي يركّز فحسب على إبراز الشخصيات البارزة من الذكور التي عرفتها ملحمة الإسلام.[6]

وفي كثير من الآيات، يذهب القرآن إلى تشجيع المرأة على المشاركة الاجتماعية والسياسية، وخاصة في مناسبات أداء البيعة السياسية، التي كان يقوم فيها وفود من الرجال والنساء بعقد اتفاق سياسي مع الرسول ممثّل الجماعة المسلمة. كانت البيعة في ذلك الزمن تُفهَمُ على أنها مبادرة لدعم التمثيل السياسي

---

[5]) مثال هاجر، زوجة النبي إبراهيم الثانية، وهي مثال التحمّل والتضحية، التي يُحيي المسلمون ذكراها كل عام منذ خمسة عشر قرنًا بمناسبة شعيرة الحج، في السعي بين الصفا والمروة.

[6]) بلقيس، امرأة أخرى وصفها القرآن بأنها ملكة ذكية وعادلة، وتتمتع بحكمة سياسية كبيرة، أهّلتها أن تكون على رأس إمبراطورية واسعة. نساء أخريات ذُكرن كرموز لمقاومة الاستبداد كأمّ موسى، أو آسيا زوجة فرعون التي رُفعت إلى مقام الأولياء، في حين نُصّبتْ مريم، أم المسيح، نموذجا للكمال الروحي وللنبوة.

للقائد. وهي بذلك موقف سياسي بامتياز شاركت فيه المرأة باسم الإسلام منذ خمسة عشر قرنا.[7]

إن تمكين المرأة من الكلام في السياسة في تلك الظروف، وهي التي لم يكن لها أي مكانة اجتماعية قبل ذلك بسنوات قليلة، وكانت جزءا من "غنيمة الحرب"، وكان يُسلبُ منها كل شيء لأنها امرأة، يمثّل في حد ذاته قلبًا حقيقيًا كاملا للمعايير الاجتماعية لذلك العصر. كانت الأهمية والتكريم الذي أضفته الرسالة الروحية للإسلام على النساء كبيرة إلى درجة أن النساء هنّ من كن حاميات التراث الديني بعد وفاة الرسول. فقد كانت عائشة أول امرأة تولّت الإفتاء في المدينة، وأهم مرجعية دينية في ذلك الزمن، كما أن سِفْرَ النساء الثلاثة، عائشة وحفصة وأم سَلَمَة،[8] هو المرجع في جمع أول مخطوط للقرآن وكتابته.[9] في حين أن التراث الإسلامي قد همّش، أو

---

[7]) سورة الممتحنة؛ آية 12

[8]) نساء النبي، اللاتي أطلق عليهن القرآن تسمية "أمهات المؤمنين"

[9]) أحصت دراسة حديثة أكثر من 8 آلاف امرأة عالمة، ومفسّرة ومحدّثة ومُفتية، تصدّين للتدريس، وأخذ عنهن عديد العلماء المسلمين، ومن بينهم مؤسسو المذاهب الفقهية، وذلك منذ القرن السابع (أنظر الدراسة التي يُعدّها محمد أكرم الندوي حول هذا الموضوع في أكسفورد، وهي موسوعة ستظهر في 50 مجلدا، صدرت

بحّس مساهمتهن، ولا يتوفر التعليم الديني السائد اليوم في أغلب الجامعات الإسلامية على أي إشارة لتلك النساء، ولا إلى مساهماتهن في تاريخ حضارة الإسلام. إن احتكار الرجال للمعرفة الدينية وإقصاء النساء تاريخيا قد همّش شيئا فشيئا مكتسبات الوحي وإضافاته، التي ستقع مُصادرتها من قبل الثقافة الذُكورية، ثقافة ستُجهض نهائيا تلك الثورة الروحية وستقبر النَفَس التحرري العادل للرسالة الأصلية للإسلام. إن أسباب تحريف تلك الثورة الروحية، وتآكل وضعية المرأة وتهميشها إبّان التاريخ الحضاري الإسلامي عديدة يطول شرحها هنا، ويمكننا تلخيصها في أسباب ثلاثة رئيسية:

- **النزاعات السياسية:** إثر وفاة النبي، سيشكّل ظهور الصراعات السياسية حول الحكم، وكل الحروب الدموية التاريخية أثناء حكم الخلفاء المتعاقب، واحدًا من أهم أسباب تهميش المرأة. فبعد الثورة الاجتماعية لمراحل الوحي الأولى، وبالرغم من حضور النساء

مقدمته في مجلد أول سنة 2007 بعنوان: *Al-Muhaddithât : the Women Scholars in Islam* "المحدّثات: المذاهب النسائية في الإسلام" عن دار أنترفاس للنشر).

الفعلي ومساهمتهن في جميع مستويات بناء أول حاضرة إسلامية، كُنّ أول ضحايا مرحلة ما بعد الثورة، واللاتي سيُطلب منهن، لغايات سياسية بحتة، مغادرة الفضاء العمومي؛

- **الفتوحات الإسلامية:** سيسعى المسلمون الأوائل عند التقائهم بالإمبراطوريات الآفلة في ذلك الوقت (الساسانيين، البيزنطيين، الفرس) إلى تبنّي التقاليد الذكورية للحضارات الأخرى تدريجيا. فُرض على المرأة المسلمة إذا — إلى جانب ما تحمله من عاداتها الضاربة في القدم — عادات لم تكن معروفة عند الرعيل الأول من المسلمين. ومثال ذلك عادة الحريم وخفْرُ النساء، التي كانت معروفة جدا لدى الفرس، والتي فرضت نفسها مع العباسيين، باعتبارها مبدأ دينيا جاء به الإسلام؛
- **بداية تصنيف العلوم الدينية، وبالأساس علمي الحديث والفقه:** اللذين سيوضعا خلال القرنين الثامن والتاسع في جوٍ من الاضطرابات السياسية الخطيرة، وستتمّ صياغتهما وجمعهما

بعقل بعيد جدا عن المبادئ الأخلاقية للقرآن. وسيمثّل هذان العِلْمان، الحديث والفقه، أحد أهم مصادر التمييز ضد النساء، وسيعتمد مؤسسوها — وهم بالأساس من الرجال — بشكل رئيس على وضعياتهم الاجتماعية الثقافية (العُرف) والسياقات المُسيّسَة جدا التي عاشوها، بغاية وضع المؤلفات الفقهية الأولى. جُمعتْ تلك النصوص في زمن كانت فيه المرأة قد فقدت عددا كبيرا من صلاحياتها؛ وكانت تلك القراءة التمييزية، القائمة على التفاوت الجنسي، والذكورية هي التي وقع إقرارها ومأسستها ووضعها موضع القداسة بالنهاية، وبقيت إلى اليوم مصدرا رئيسيا للتشريع للأسرة، في أغلب البلدان الإسلامية.

كيف نتجاوز الخطاب المحافظ الحالي

يتعلق الأمر في الحقيقة بتجاوز تكرار الخطاب المحافظ والإشكالية الدائمة المتعلقة"بالمرأة المسلمة" وبتصنيفها في باب "حقوق المرأة وواجباتها في الإسلام" أو في باب "وضعية المرأة في الإسلام"، أو أيضا "الإسلام

الذي كرّم المرأة وحماها" ... نجد هنا شعارات متواترة وجوفاء لخطابات إسلامية تبريرية هي عبارة عن ردات فعل متناقضة بفعل الوقائع وحقيقة غالبية المجتمعات المسلمة، من جهة، وللتطلعات المشروعة للنساء المسلمات اليوم اللاتي يطالبن بحقهن في الكرامة والمساواة والاستقلالية من جهة أخرى.

فعبر تصنيف النساء في "سجلاّت" مخصوصة، مثل "الوضعية القانونية للمرأة المسلمة"، ندعّم الفكرة القائلة إن المرأة تتمتع بحقوق وبوضعية قانونية هي في نفس الوقت خاصة ومختلفة عن حقوق الرجل المسلم ووضعيته. وأن يُخصَّصَ لجميع النساء المسلمات وضعية قانوية مخصوصة لـ"**الـ**"مرأة في الإسلام أمر يتناقض مع الخطاب القرآني، وهو رسالة تتوجه إلى البشرية جمعاء وتتعالى بذلك عن كل مفاهيم الجنس ذكرًا كان أم أنثى، والعرق، والأصول الإثنية والاجتماعية. ويجرّ ذلك التصنيف بالضرورة إلى فكرة "المعيار الكوني"، المتمثلة في "نموذج ذكوري" يمثّل وحده "الطبيعة الإنسانية" أو "الكائن البشري" في كماله. ذلك تقريبا ما يقوله بيار بورديو عندما يؤكد أن "قوة نظام الذكر ترى نفسها في تجاهلها

للبرهنة".[10] وبالتالي، وحتى نعيد اليوم – في ضوء التحولات الاجتماعية العميقة الحالية – تأويل ما يقوله القرآن حول هذه الموضوعة، فلا بد من إعادة وضع هذه الأخيرة في إطاره العادي الأوّلي، وهو إطار رؤية قرآنية للبشرية جمعاء. وبمعنى آخر، لا بد من إعادة مَرْكَزَة موضوعة المرأة وسط هذه الرؤية القرآنية الشاملة للحقوق والحريات الإنسانية، وفقًا للرسالة الروحية الإنسية التي يمثلها مفهوم الإنسان.

مقاربة جديدة للرسالة الروحية في الإسلام

أوحى الزخم الابتدائي وروح القرآن بتحرر فارق للمرأة — وبخاصّة بالنسبة لعصر الوحي — وبرغبة مؤكدة في تأسيس روحانية تقوم على المساواة بين المرأة والرجل. بيد أن هذه الأخيرة لم تترجم في مُجمل الإنتاج التأويلي الإسلامي، الذي بقي أسير قراءات دغمائية ومُسَيَّسَة، وقعت مأْسَسَتُها في مدارس فقهية (مذاهب) انتهتْ، مع الزمن وبفعل الانحطاط الحضاري، بأنْ جمّدت الفكر الإسلامي وقدّست مذهبه. ولتنظيف الفكر الإسلامي من كل تلك

[10]) Pierre Bourdieu, *La Domination masculine*, Seuil, 1998, p. 22, note 11.

الانحرافات التأويلية، لا بد من إعادة قراءة القرآن انطلاقا من تلك النبضة الأولى، أي نبض البعد الأخلاقي الكوني والمحرر. وهذا هو الاتجاه الذي يجب أن نتعلم فيه القيام دائما بقراءة مزدوجة للمصادر: قراءة تُميّز "روح النص" – وهو لا يزال صالحا اليوم بعد مضيّ خمسة عشر قرنا – وأخرى تركز على الجواب المُقدَّمِ إلى حدث طارئ متجذّر في واقع ذلك الزمن ووقع تجاوزه اليوم تماما.

وانطلاقا من هذه القراءة المزدوجة، وحتى نُعيد موقعة موضوعة المرأة في إطار رؤية كلّية للرسالة الإسلامية، تقترح المقاربة الإصلاحية الجديدة إبراز أربعة أبعاد أساسية تحويها الرسالة الروحية: بُعدٌ قيمي شامل، وبعدٌ إنساني، وبعد مفهوميٌ معياريٌ يقوم على المساواة، وأخيرا بُعدٌ اجتماعي.

1. البعد القيمي (الأخلاقي)

هو بعد يتعلق بالأخلاق الروحية التي تتجسّد في جوهر الرسالة، وتمثّل "قلب" النص المقدّس. ويتوزّع إلى مبادئ عدّة، ترمز لها مفاهيم مثل *التوحيد* (لا إله إلا الله)، وهو مبدأ وحدة الخالق. ويتطابق هذا المبدأ المؤسس للإسلام مع التصور الفعلي لتحرير الإنسان، وصنوه المساواة بين البشر. أنْ تعبد إله واحدا يعني أن

ترفض كل أنواع الشرك، أي أن ترفض تأليه ما عدا الله، وتتخلّص بالتالي من هيمنة كل قوة مادية أو سياسية أو غيرها. وهذه العلاقة المتعالية للكائنات البشرية – نساء ورجالا – مع خالقهم هي ما يؤسس للمساواة بينهم ولتحررهم.

هناك أيضا مفهوم العلم، الذي جاء في آيات عدة ومن بينها الآية الافتتاحية للرسالة في صيغة الأمر الواضح " إقرأ "، الذي يتوجه إلى المرأة والرجل.[11] هذا الوعي الذي يمرّ عبر العلم، ولا بد من التذكير بذلك، هو المقدمة اللازمة لكل وعي اجتماعي وسياسي. والقيم الروحية للرسالة تقوم هي أيضا على مبدأ رئيسي، وهو قاعدة الوحي، متمثّلا في مفهوم العقل البشري – المرأة والرجل – الذي وقعت الإشادة به في كل ثنايا الرسالة. كثيرة هي الآيات القرآنية التي تذكّر الإنسان بقدرته على البيان والتفكّر والتدبّر والحكمة وأن يكون من أولي الألباب.[12]

وبالنهاية، فإننا نجد في القرآن بُعدًا مركزيا يتمثل إقرار

---

[11]) في حديث نبوي مشهور يقول " طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ "

[12]) القراءة الذكورية تمجّد عددا من المأثورات التي تؤكد "قصور" المرأة على التعقّل، أحاديث متناقضة تماما مع القرآن

العدل لجميع البشر، بقطع النظر عن اختلافاتهم الجنسية والعرقية والطبقية. ومن المهم التذكير بأن القرآن يفرض العدل ولا يفرض الإيمان، كما تبيّنه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾،[13] في حين أن حرية الاعتقاد هي شرط وقاعدة لا يمكن التنصل منها للإيمان. القرآن واضح جدا في هذا المضمار، فهذا الشرط الجوهري لحرية الاعتقاد يتكرر كثيرا من المرات وفي آيات مختلفة: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[14] أو أيضا ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ﴾.[15] ومع الأسف الشديد، فإن قرونا من التوظيف السياسي للدين قد همّش هذه المفاهيم المفتاحية، مقدّمًا الطاعة العمياء للحكام. وبحسب نفس المنطق السياسي الذكوري، فقد نقلنا تلك الطاعة إلى العائلة، عبر خضوع المرأة لزوجها.

2. البعد الإنساني

يتعلق الأمر هنا بالعودة إلى مفهوم مركزي حاضر في النص القرآني، هو مفهوم الإنسان، وبالتالي إلى "لاهوت للكائن البشري" الذي أعلن عنه القرآن في

---

[13]) سورة النحل؛ آية 90

[14]) سورة البقرة؛ آية 256

[15]) سورة الكهف؛ آية 29

آيات جوهرية.

وهذه الرؤية القرآنية للإنسانية جمعاء ممثلة في مفهوم مركزي في النص القرآني، هو مفهوم الإنسان، أو بنو آدم، تشمل الرجال والنساء في إنسانيتهم المتساوية والمتعالية عن جنسهم الذكوري أو الأنثوي. أهم ما في الرسالة الروحية يتسامى عن مفهوم المرأة والرجل، ويتوجه إلى الذات الإنسانية في ضعفها وهشاشتها ككائن مخلوق من طين، ولكن أيضا في قوته الروحية وفي كماله باعتباره مخلوقًا من نَفَسٍ رباني ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾[16] فالإنسان في الخطاب القرآني، إمرأة كان أم رجلا، هو جوهر الكون وغاية الخَلْق.

ولكن الخطاب التقليدي الإسلامي يذهب عادة إلى تمجيد خطاب حول الإنسان يُقصرُه على الرجل حصرا، وعلى قوته وفضائله كذَكَرٍ، مُقصيًا منه النساء، بما يبدو أنهن غير معنيات، وأنهن بحسب هذه الرؤية كائنات بشرية ذوي مرتبة ثانوية. في حين أننا لا نجد في أي مكان من الرسالة الروحية مفهوما لوضعية ثانوية للمرأة. ومع الأسف، فإن هذا النوع من الخطاب الذي ينضح تمييزا وإذلالا هو الذي يؤثث

[16]) سورة الحجر ؛ آية 29

غالبة الخُطب والأحاديث الدينية في المساجد وفي القنوات التلفزية، والذي يدعّم الرؤية التبخيسية للمرأة باسم الدين.

3. البعد المفهومي والمعياري القائم على المساواة

نجد هذا البُعد يتكرر في كل جَنَبَات الرسالة عبر مفاهيم مفتاحية وآيات تتناظر في المساواة بين النساء والرجال بشكل كامل.

مفاهيم أساسية حول المساواة بين المرأة والرجل

هي مفاهيم وقع تهميشها عبر التأويلات الذكورية المختلفة، ما أنتج فهمًا للنص معادي للمرأة، بعيدَ الشأو عن الغايات وعن قيم الرسالة الروحية للإسلام. ولأن تلك المفاهيم عديدة ويطول شرحها، فإننا نقتصر على ذكر بعضها فقط:

- مفهوم النفس الواحدة، يَعرِضُ للأصل الذي يُساوي بين المرأة والرجل، المخلوقان من نفسٍ واحدةٍ. لا وجود لمفهوم خلق المرأة من ضلع الرجل في القرآن، ولا لثانوية خلق النساء، ولا للخطيئة التي تتحملها أول امرأة في البشرية أصلا؛[17]

[17]) سورة النساء؛ آية 1. ولعله من المفيد الإشارة إلى أنه، في مقابل النص القرآني الذي يفتقد تماما لتلك المفاهيم، تحتوي أغلب

- مفهوم الاستخلاف، أو المسؤولية المتساوية بين الرجال والنساء في إقامة الحضارة الإنسانية: إنها أمانة الخَلْق التي تعود للمرأة كما الرجل، ويتحمل مسؤولية الاستخلاف كل كائن بشري على وجه البسيطة؛[18]
- مفهوم التقوى، وهو معيار أساسي في تسامي الإنسان، امرأة كان أم رجلا. يقول تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾؛[19]
- المفاهيم المرتبطة بالحياة الزوجية: نجد عدة مفاهيم مرتبطة بالزواج، ومنها مفهوم المعروف،[20] الذي يُعتبَر مؤسِّسًا للقاعدة الأخلاقية للارتباط بين المرأة والرجل. يوصف الزواج في القرآن أيضا باعتباره

التفاسير الإسلامية على مفاهيم لا مساواة فيها في الخلق، وأن حواء قد خُلقتْ من ضلع آدم، وأنها هي من يتحمل مسؤولية الطرد من الجنة ... وهي مفاهيم تترجم عن تأثير التعليقات التوراتية في التفاسير الإسلامية الوسيطة. أنظر تحليلا تفصيليا لهذا الموضوع في كتاب

Barbara Freyer Stowasser, *Women in the Qur'an, Traditions, and Interpretation*, Oxford University Press, 1996, p. 30.

[18]) سورة البقرة؛ آية 30. سورة الأنعام؛ آية 165. سورة يونس؛ آية 14

[19]) سورة الحجرات؛ آية 13

[20]) مفهوم يتردد أكثر من عشرين مرة في القرآن، ومنها الجزء الأخير من الآية 19 من سورة النساء

"ميثاقًا غليظا"،[21] ويحدَّدُ بمبادئ التشاور والتراضي،[22] والفضل المتبادل،[23] والمودّة والرحمة،[24] والسكينة.[25]

عدد كبير من المفاهيم الأساسية التي يأخذ بها الفقه مع الأسف، وهي غالبا ما تُشبِّهُ الزوجة بالعبد، تطيع زوجها طاعة عمياء، وقد خُلقتْ، بحسب هذه الرؤية الفقهية، فقط للاستجابة لحاجيات زوج بيده السلطة المطلقة.[26] وبذلك نلاحظ أن الزواج، ويسمّى نكاحًا في كتب الفقه، غالبا ما يوصف بأنه "عقد مُتعَة"، نجد فيه أن الرجل وحده من "يتمتّع" بجزء أو بكل جسم المرأة / زوجته. وتذهب بعض المذاهب إلى حد مقارنة عقد الزواج بعقد التمليك، في حين قارنه

---

[21]) سورة النساء؛ آية 21

[22]) سورة البقرة؛ آية 232 – 233

[23]) سورة البقرة؛ آية 237

[24]) سورة الروم؛ آية 21

[25]) سورة الأعراف؛ آية 189. وسورة الروم؛ آية 21

[26]) أنظر مثلا ما يقوله الإمام الغزالي حول الزواج في إحياء علوم الدين. بيروت: المكتبة العربية، ج 2 ص 81، وكذا ابن القيّم الجوزية في إعلام الموقّعين، ج 2، ص 106، 1973

البعض الآخر بعقد البيع والشراء.[27]

وهذا التأويل الفقهي الذي توارثته الأجيال المتعاقبة من العلماء والفقهاء المسلمين، رسّخ في الذهنيات صورة إلزام الزوجة بالخضوع لزوجها باعتبارها مبدأ إلهيا ثابتًا ومقدّسًا.

هناك مفهوم آخر يعتبر من المفاتيح هو الولاية، الذي يؤكّد على المساواة الاجتماعية السياسية بين المرأة والرجل، سواء في الفضاء الخصوصي أو في الفضاء العام. ففي الخاص، أو في الحياة الزوجية، يتمثل المفهوم في ذلك التواطؤ والمسؤولية المتقاسَمَة بين الشركاء، في حين يتعلق الأمر في الفضاء العمومي بالمسؤولية الاجتماعية السياسية المشتركة.[28] ولا بد من التذكير أن ذلك المفهوم هو عينه الذي احتُفِظ به في الإصلاح الأخير لمدوّنة الأسرة في المغرب سنة 2004، والذي يشير إلى أن "مسؤولية الأسرة تحت رعاية الزوجين".[29] وقد عوّض هذا البند القاعدة

---

[27]) عبد الرحمان بن عوض الجزيري، الفقه في المذاهب الأربعة. بيروت، 2005. "متاب النكاح" (راجعه وصححه فريق من علماء الأزهر)

[28]) سورة التوبة؛ آية 71

[29]) أنظر مدونة الأسرة في المغرب (نسخة مُحيّنَة يوليو 2010)، ص 5

القديمة القائلة إن الزوج هو رب العائلة، الأمر الذي نجده ساريا إلى اليوم مجالات الأحوال الشخصية في أغلب البلدان المسلمة.

الآيات القائلة بالمساواة

في صُلب النص القرآني نجد أن صياغة الخطاب الذكوري تتضمن الكونية الإنسانية، باعتبار أن الذّكورة – كما في لغات أخرى – تُستعمَلُ "كجنس محايد". ومع ذلك فإن النص يشمل أيضا نوعا من الآيات نجد فيها مساءلة متزامنة للنساء والرجال تتبعها أوامر متساوية تماما للجنسين. ولاستحالة تناول كل الآيات التي تترجم بُعد المساواة ذاك، والتي تَعُدُّ إحدى وعشرين آية،[30] فإن ذلك لا يمنعنا من التعرض لمثال بعض الآيات لدعم أقوالنا.

مثال ذلك الآية التي تكشف بشكل واضح المساواة في مساءلة النساء والرجال، مع إصرار دقيق جدا على الطبيعة الإنسانية لكليهما: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ

[30]) سورة البقرة؛ آية 221. سورة آل عمران؛ آية 195. سورة النساء؛ آية 7 و 32 و 35 و 124 و 130. سورة الأعراف؛ آية 22. سورة التوبة؛ آية 71. سورة النحل؛ آية 97. سورة النور؛ آية 2 و 3 و 6 – 9 و 30 و 31. سورة الأحزاب؛ آية 35 و 36. سورة غافر؛ آية 40. سورة الفتح؛ آية 5. سورة الحجرات؛ آية 13

وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ [..] أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.[31] كانت الرسالة من خلال هذه الآية تنتقل من المذكر الجمع العادي، الذي يشمل النساء والرجال، إلى عرض الصفة البشرية للمؤنث والمذكر، في تكرار واضح يؤشّر إلى غاية المساواة في الخطاب القرآني.

مثال آخر نجده في العلاقة الزوجية بين المسلمين وغير المسلمين. التمييز، في حالة الزواج المختلط، هو القاعدة في التأويلات الفقهية الإسلامية، حيث نجد أن المسلمين من الرجال يجوز لهم التزوّج من غير المسلمة، وخاصة اليهودية والمسيحية (ويُطلق عليهن "أهل الكتاب")، في حين لا يجوز للمسلمة الارتباط إلا بمسلم. ولكن القرآن يقول في هذا الشأن: ﴿وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلاَ تُنكِحُواْ الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُواْ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾.[32]

---

[31]) سورة الأحزاب؛ آية 35

[32]) سورة البقرة؛ آية 221. وللإطّلاع على تفاصيل أكثر، أنظر ما قمنا به من تحليل في دراستنا "ماذا يقول القرآن بخصوص زواج

تتوجه الآية إلى الرجال والنساء من المسلمين بصورة متساوية تماما ومتناسقة، وتذهب إلى جواز ارتباط الرجل المسلم والمرأة المسلمة بالمؤمنين، ودعوتهم إلى الإمساك عن الزواج بالمشركين. صحيح إن الآية تعرض لمتوازيات مهمة تتعلق بتأويل مفاهيم "المؤمنين" و "المشركين"، ولكن مهما كانت تلك التفسيرات فإن شيئا واحدا على الأقل يبدو واضحا في هذا الأمر القرآني، وهو أن ما يبدو مهما بالنسبة للرجال المسلمين هو كذلك بالنسبة للنساء المسلمات. وبالفعل فإن التحليل الدقيق للآية يُظهرُ أن الزواج بين المسلمين، رجالا أو نساء، ومن كانوا يُحشرون في ذلك العصر تحت خانة "المشركين" قد حرّمه القرآن بشكل صريح.

أما الآية الخاصة بالزواج بين المسلمين من الرجال والنساء، والمؤمنين من الديانات الأخرى (وخاصة من اليهود والنصارى) فهي تحدد قواعد متطابقة ومتساوية تماما في الصياغة القرآنية. ولكن لا بد من الإشارة إلى

المسلمين من الرجال والنساء بغير المسلمين" [باللغة الفرنسية]
http://www.asma-lamrabet.com/articles/ce-que-dit-le-coran-quant-au-mariage-des-hommes-et-des-femmes-musulmans-avec-des-non-musulmans/

وجود إجماع تام في التفسير الفقهي بخصوص زواج المسلم من غير المسلمة وتحريم زواج المسلمة من غير المسلم، في حين لا وجود إطلاقا في القرآن لما يبرر ذلك التمييز. نحن هنا، مرة أخرى، أمام مثال من الآيات المنادية بالمساواة التامة والتي لم يتمّ تفعيلها، لا بل وقع العمل بعكسها في التأويلات التشريعية الإسلامية.

ولمزيد تأكيد هذا الأمر نذكر مثال آيتين ميّالتين للمساواة في علاقة بالقواعد العامة للإرث، تعرّضتا للتهميش – مع الأسف – لصالح آيات تمييزية جاءت إجابةً لواقع ظرفي، وتمكّنت من أن تزيح من طريقها روح المساواة المتعلقة بالإرث في الإسلام: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾،[33] و ﴿وَلاَ تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾.[34] تبدو الآيتان أساسيتان في توزيع التركَة، وتختصران – لوحدهما – فلسفة القرآن في المسألة. فنحن نلاحظ من خلال

[33]) سورة النساء؛ آية 7

[34]) سورة النساء؛ آية 32

هذه الآيات أن القرآن يؤسس لقاعدة مركزية هي المساواة في نصيب الرجل والمرأة من ميراث الأبوين أو الأقربين، وذلك بقطع النظر عن قيمة ذلك الميراث، كما تؤكد الآية.

أما المثال الآخر للآيات التعادلية المهمّ ذكره، فهو ذاك المتعلق بشهادة النساء والرجال في حالة الزنا. يقع الحديث هنا عمّا يُسمّى بآية اللِّعان. وفيها حل لمشكلة الزنا في العائلة عبر إقرار المساواة الكاملة في الشهادة بين الزوجين: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاء إِلاَّ أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.[35] إن هذه المواجهة القَوْلِيَة ترمز إلى تبادل الشهادات بين الطرفين

[35]) سورة النور؛ آية 4 – 9

المعنيين في العائلة. يتعلق الأمر هنا بمواجهة في أداء الشهادة متساوية تماما، وتُحيل كل واحد من الزوجين، الرجل والمرأة، إلى ضميره.[36] نحن هنا إذًا أمام واحد من الأمثلة الأكثر دلالة في موضوع المساواة بين الرجل والمرأة وهو يريد أن يكون، علاوة على ذلك، شهادة في قلب ما يُعتبرُ لدى الأزواج أغلى ما تمثّله حياتهم الحميمية، أي علاقات الوفاء والثقة المتبادلة.

ومن المهم الإشارة هنا إلى التفاوت الموجود بين الوضعية "الريادية" للقرآن وبين التشريعات ذات الصلة في عديد البلدان الإسلامية التي لم تُولِ، منذ الفترة الاستعمارية، أي اهتمام لهذا المفهوم القرآني، بل وشرّعوا في بعضها لصالح ما عُرِفَ عادة بأنه "جرائم شرف". وفي الحقيقة فإنه من الغريب — والمؤسف — أن تلاحظ أن البعض لا يزال يبرر، في الجدل حول الإسلام، الشهادة غير المتساوية، أو أسوأ من ذلك معاقبة الزاني بالرجم بالحجارة، في حين يوجب القرآن

---

[36]) يؤكد الفقيه الكبير والفيلسوف ابن رشد أن آية اللِعان تلك تترجم الشهادة في المعنى الحقيقي للمصطلح، لأنه يخضع إلى نفس شروط المعايير في الشهادة المعلومة، وتنطبق على كل من يمكنه القيام بذلك. ابن رشد، بداية المجتهد ونهاية المقتصد. ج 2. القاهرة: دار الجيل / مكتبة الكلية بالأزهر، 2004. ص 199، هامش 31

المساواة في الشهادة، ولا يعترف بالرجم، ويضع شروطا تعجيزية تجعل من إثبات الزنا مهمة صعبة جدا.[37]

وأخيرا، توجد آيات تعادلية أخرى تترجم المساواة الروحية بشكل تماثلي ومتناسق في التوجه للرجل وللمرأة، وفي تثمين أعمالهما في الحياة الدنيا. ونأخذ على ذلك مثال الآيات التالية:

- ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾[38]
- ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[39]
- ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾[40]

---

[37]) هل يجب التذكير بأن الرجم غير موجود في القرآن، وأن أصولها موجودة في اليهودية، وتعود إلى العصور السابقة عن الإسلام ؟ نجد مصدر هذه العقوبة الجسدية في بعض ممارسات النبي، وبعض الأحاديث غير الصريحة المرتبطة بسياقات العصر.

[38]) سورة آل عمران؛ آية 195

[39]) سورة النحل؛ آية 97

[40]) سورة النساء؛ آية 124

4. البُعد الاجتماعي

يُعتَبَرُ هذا البُعد، الذي يمكن أن نصفه أيضا بالاجتماعي – السياقي، وبدون اعتراض، نقطة مركزية لموضوعة المرأة في علاقة بالنص. وكما لاحظ ذلك عديد المفكرين المعاصرين، فإننا نجد في النص القرآني نفسه ثنائية بين البعد القيمي والأخلاقي، وهو كوني، والبُعد الاجتماعي الذي رأينا فيه القرآن، عند نزوله في ذلك الزمن، يحاول "التعامل" مع الممارسات الاجتماعية والثقافية آنذاك مثل الزواج والطلاق والميراث، في نفس الوقت الذي يُحمّل مقاصدها الشرط الأخلاقي المتمثل في العدل والقسطاس.[41] ومن هنا جاءت ضرورة التمييز، في هذا البعد الاجتماعي، بين الآيات ذات الأفق المرتبط حصرا بالسياق، والتي تعتبر اليوم مُتجاوَزة، وتلك التي تحمل أفقا اجتماعيا–ثقافيا، والتي لا بد لتطبيقاتها الحالية أن تأخذ بعين الاعتبار بالروح والغايات أكثر من أخذها بحرفيتها.

[41]) فكرة نجدها خاصة في الفكر الإصلاحي للمصري نصر حامد أبو زيد

الآيات المرتبطة بالظرفية

يتعلق الأمر هنا بالآيات التي تتحدث — من بين ما تتناوله — عن الرقّ وغنيمة الحرب والتسرّي أو عن أولئك الذين يخضعون للعقاب الجسدي. فالرق لم يمنعه الإسلام لا شك، ولكن القرآن ما فتئ يؤكد على أهمية تحرير العبيد كعمل من أعمال الخير والتقوى.[42]

وبالنسبة لغنيمة الحرب والتسري، فهما ممارستان تدخلان في نفس سجلّ الرق: يتحدث القرآن عنها بلغة الملاحظة، دون الانحياز إلى موقف، مع إقرار إجراءات تلغي تلك العادات القديمة بالتدريج، ودون أن تهز أركان النظام الاجتماعي القائم آنذاك.

أما عن أنواع العقاب الجسدي، فلا بد من توضيح الخلط المنتشر حول رجم المرأة الزانية في الإسلام، موضوع أسال الكثير من الحبر، وهو عند البعض ترجمة عن جوهر "بربرية" الإسلام. منذ البدء، نُعلنُ وبدون

[42]) كان تحرير العبيد، ويطلَقُ عليه في القرآن تحرير رقبة، إجراءًا مؤقتا يكفّر به المرء عن ذنوبه، ويعتبر وسيلة غفران عن عدد كبير من الآثام والمعاصي، ما يسمح بتحرير العبيد وإقامة وعي جديد يحترم كرامة الإنسان وحريته (أنظر خاصة سورة البقرة؛ آية 177، وسورة النساء؛ آية 92، وسورة المائدة؛ آية 89، وسورة المجادلة؛ آية 3، وسورة البلد؛ آية 12)

موارية: لا وجود لأي آية في القرآن تتحدث عن الرجم، لا بالنسبة للنساء ولا الرجال. العقوبة التي أقرها القرآن في حالة الزنا – سواء أتاه الرجل أم المرأة – هو "الجَلْد"، وقد كان في الواقع إجراءً وُضع كعقاب جسدي رادع لإلغاء ممارسة الرجم، وهي من التقاليد المتأصلة في الشرائع الموسوية عند الجماعات اليهودية التي كانت تقطن المدينة يومئذ.[43]

الآيات الاجتماعية الثقافية

هي تقريبا ست آيات أساءت تفسيراتها إلى المرأة في كامل مراحل الحضارة الإسلامية، وذلك بالأساس عبر أحكام التشريع والتأويل في العلوم الإسلامية. فالآيات التي تتحدث عن تعدد الزوجات، والإرث، والشهادة، وما "يُفتَرَضُ أنه الرجم، وسلطة أو قوامة الرجل، و"الحجاب" الإسلامي المزعوم، هي التي شكّلت سوء السمعة الذي صاحب الإسلام، خاصة

[43]) جاء الجلد – يتحدث القرآن عن مائة جلدة بالسوط – ليحلّ محلّ ممارسة أكثر بشاعة هي الرجم حتى الموت، عادة سيّارة جدا في ذلك العصر. ويبقى الاقتراح الجديد الذي أتى به الوحي عسير التطبيق، بل يرتقي إلى مستوى الاستحالة، بما أنه يشترط في تهمة الزنا وجوبا شهادة أربعة أشخاص مختلفين مشهود لهم بالعدالة (سورة النور؛ آية 4)

عندما تتعرض للقراءة الحرفية التي استُعملتْ عن دراية لشرْعَنَة التمييز ضد النساء من وجهة نظر دينية.

ومن الغريب أن نرى أنه من بين 6233 آية قرآنية، وبالرغم من قيمة المكانة التي تبوّأتها المرأة في الرؤية القرآنية الشاملة والتحولات الاجتماعية التي تسببت فيها تلك الرؤية، تركيز القراءات التأويلية على تلك الآيات الستة، وانتهاؤها بتقليص مجمل الرسالة إلى ذلك الفهم المخصوص، وخاصة إلى تأويلها التبخيسي.

يبقى صحيحا أن تلك الآيات، وهي غير عادلة في صياغتها ومعزولة عن إطارها العام وعن أخلاق الرسالة القرآنية، يمكن أن تبعث على الخلط، كما يمكن لتفسيراتها أن تضلّ مبهمة، خاصة إذا قُرأتْ في ضوء السياق الاجتماعي والثقافي الأبوي للمجتمعات التي جاء الإسلام لينزرع فيها.

أ) مثال القوامة

الآية التي تتناول تلك السلطة "المزعومة" هي الآية المشهورة بالقوامة، والتي فُهمتْ في أغلب كتب التفسير الكلاسيكية باعتبارها "الـ" آية (بالتعريف) التي تنصّ على التفوق المطلق للرجال على كل

النساء، وهي بالتالي التي تمنع أي صياغة أو تفكير في مفهوم المساواة بين المرأة والرجل في الإسلام. وتؤكد الآية على ما يلي: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾.[44]

وبحسب سياق الآية فإن مصطلح "قوّامون" يعني هنا "زوّد بالحاجيات" أو "تكفّل"، وهو ما تؤكده بقية الآية التي تتحدث عما "ينفقه الرجال من أموالهم".

وتتطابق آية القوامة، وهي غالبا ما تُترجَمُ وتُأوّلُ خطلاً بـ"السلطان" وبـ"التفوق"، في الحقيقة مع المسؤولية، بل ومع واجب الزوج في توفير حاجيات كل أفراد عائلته، بمن فيهم الزوجة، في منزل الزوجية. ولا يمكن تعقّل هذا المفهوم بدون وضع الآية في سياق ذلك العصر، حيث غالبا ما تعود المسؤولية المالية تقليديا داخل العائلة إلى الرجال.

ومن المهم الإشارة هنا إلى أن مفهوم القوامة باعتباره مفهوما نُحتَ للتعبير عن سلطة الرجل وتفوقه وكما فُهمَ وأُوّلَ في كتب التفسير، لا يترجم عن المثال الأخلاقي للرسالة الروحية بخصوص العلاقة الزوجية

[44]) سورة النساء؛ آية 34

التي تُمثّل فيها مبادئ التشاور والتراحم والقسط والعدالة مبادئ حتمية. ولكن تلك المسؤولية المادية، التي عبّر عنها مصطلح القوامة في القرآن، فُهِمَ في القراءة الذكورية الإسلامية باعتباره تشريفا، أو سلطانا مُنح للرجل، الذي تحكّم في كل السلطات لقيادة زوجته والحفاظ عليها تحت هيمنته.[45]

في المغرب، وأثناء إصلاح مدوّنة الأسرة لعام 2004، مكّنت إعادة قراءة لهذه الآية من تفكيك ذلك المفهوم المشين لسلطة الزوج، وتعويضه بمفهوم المسؤولية المشتركة، خاصة أن مبدأ الولاية ذاك موجود في القرآن.[46]

---

[45]) أنظر بخصوص هذا الموضوع الكُتيّب الذي وضعناه حول "إعادة قراءة آية القوامة في القرآن، أو في سلطة الزوج"
www.asma-lamrabet.com/articles/une-relecture-femininedu-concept-coranique-de-qiwamah-ou-autorité-de-l-epoux
وكذلك الدراسة التي تناولت فيها الأفكار المسبقة المنتشرة في المغرب حول الجندر والمنشورة في ماي 2013 ، بعناية منظمة العفو الدولية، والتي تبيّن كيف إن ذلك المفهوم (القوامة) يرمز إلى شرعنة الوضعية الفوقية للرجل في المجتمع.
www.genderclearinghouse.org/upload/Assets/Documents/pdf/Etude sur les stéréotypes de genre répandus au Maroc version Frances.pdf

[46]) أنظر أعلاه في مفهوم الولاية. لا بد من الإشارة إلى أننا احتجنا إلى 14 قرنا لنكتشف إمكانية أن نجد في القرآن مبادئ كونية مثل

ب) مشكلة الإرث

من المفيد دائما التذكير أن المرأة المسلمة، قبل الإسلام، لم تكن تتمتع بأي حق في الميراث؛ وعلى العكس من ذلك، فهي تُعتبَرُ جزءا من الممتلكات التي يرثها الرجال بعد موت الأقربين. ومع الوحي الإسلامي، اكتسبت المرأة منذ اللحظة الأولى الحق في الميراث، حقٌ لا بد من التذكير أننا لا نجد مثيلا له في أي نص وحيٍ قبل القرآن.

كما يجدر التذكير أيضا أن قوانين الميراث في القرآن مرتبطة بدرجة القرابة الدموية التي تجمع الوارثين بالمتوفَّ، وأيضا بالمسؤولية المالية التي تعود للوارث تجاه بقية أفراد العائلة. هي دائما نفس الفلسفة، أي تلك التي تعطي الأولوية إلى الحفاظ على الأكثر فقرا والأكثر هشاشة في سُلّم البنية العائلية التقليدية.

من المهم التذكير بكل ذلك في الوقت الذي يبدو لنا وجود قاعدة واحدة فحسب للميراث، حالما نُقاربُ مسألة الإرث في القرآن، هي التي تُعطي المرأة نصف

المسؤولية الزوجية المتساوية. وفي البلدان العربية الإسلامية الأخرى (ما عدا تونس) فإن مفهوم الزوج رب العائلة ما يزال فاعلا في مجلات الأحوال الشخصية، وقد فُهمتْ بالتالي على أنها مبدأ إسلامي ثابت.

الرجل، ما يعطي الانطباع أن الرؤية القرآنية تُختصَرُ في تلك المقاربة. في حين أن قانون الإرث في الإسلام لا يقتصر على قاعدة نصف حصّة البنت مقارنة بأخيها عند وفاة أحد الأبوين. إن حصّة الميراث التي تؤول للمرأة – وللرجل أيضا – تختلف بحسب التصورات التي لا علاقة لها بجنس الشخص. وبذلك يمكننا أن نعدد ثلاثين حالة في القرآن ترث فيها المرأة حصة مساوية لحصة الرجل أو أكثر.[47]

الآية الوحيدة التي تتعلق بنصف الحصّة التي تعود إلى البنت هي حالة الأخت التي ترث نصف المبلغ الذي يرثه أخوها. وتُفسَّرُ تلك القسمة غير المتساوية، كما قلنا سابقا، بالمسؤولية المالية التي تعود إلى الإخوة، بينما تبقى الأخوات أحرارا في التصرف في أموالهن وممتلكاتهن كما يحلو لهن.[48] وهذه الآية التي تبدو

---

[47]) أنظر الدراسة التي أنجزها صلاح الدين سلطان حول ميراث المرأة في الإسلام بعنوان "ميراث المرأة وقضية المساواة". مصر، 1999

[48]) وصاغ بعضهم ذلك باعتبار ما تحصل عليه الأخت هو المبلغ الصافي المضاف إلى ممتلكاتها العينية، بينما ما يحصل عليه الأخ هو مبلغ خام، يُقتَطَعُ منه بقية المصاريف. أنظر:

Azizah Yahia al-Hibri, «Droits des femmes musulmanes dans le village mondial : défis et opportunités», www.cfpe2004.fr/wp-content/uploads/2013/12/AL-

"مجحفة" هي في الحقيقة "عادلة" بالنظر إلى الغايات.

أما في السياق الحالي، الذي يعرف تحوّلات مجتمعية عميقة وأوضاع اقتصادية جديدة، فإن النساء يساهمن بنفس المستوى الاقتصادي للرجال داخل العائلات والمجتمع بشكل عام. ومن المنطقي إذا أن يصبح التطبيق الحرفي لهذه الآية مصدرا لظلمٍ حقيقي.

لقد حان الوقت اليوم للرجوع إلى الآيات التي تُعرّف قواعد المساواة العامة في الميراث، بما أنه لا شيء يمنع – على الأقل من وجهة النظر الإسلامية — من المساواة في حال الأشقّاء. ومن هذا المنطلق، فإننا في حال إعطاء حصة متساوية للورثة نبقى أوفياء للعدل والقسطاس الذي تبشّر به غايات الآية المعنية.

ت) حالة تعدد الزوجات

لنذكّر بداية أن الإسلام لم يخترع تعدد الزوجات، بل إن ذلك كان موجودا منذ القدم، ومارسته كل الحضارات الإنسانية.[49]

HIBRI-Droits-des-femmes-musulmanes-dans-le-villagemondial.-DC3A9fis-et-opportunit-C3-A9s.pdf

[49]) يمثل تعدد الزوجات في إفريقيا السوداء ظاهرة مهمة، وتمثل نسبة النساء اللاتي تعشن مع بعضهن في التعدد بين 30 و 50 بالمائة؛ وهذا التعدد الجماهيري لا علاقة له بالإسلام، كما بيّنت ذلك عديد الدراسات حول الموضوع. فالإحيائيين التقليديين مثلا

وبخصوص الآيات التي تتحدث عن تعدد الزوجات، فلا بد من إعادة قراءتها، هي أيضا، ضمن سياقاتها، في الجزيرة العربية قبل الإسلام حيث كان عدد الزوجات غير محدود إتّباعًا لعادة ضاربة في القِدَم. وغني عن القول أن إرساء الارتباط بواحدة كمعيار في الزواج في بِنيةٍ تقليدية مُعدِدَةٍ لذلك العصر استلزم الوحي المتدرّج في عديد الآيات. عمد القرآن في البداية إلى التأسيس لفترة انتقالية عبر تحديده الزواج بأربع، وخاصة عبر ربطه لذلك التحديد بالمساواة التامة بين الزوجات للتقليص من الإمكانية العملية. وفي مرحلة ثانية، أعلن القرآن عن استنكاره الواضح من خلال آية تُظهر بوضوح استحالة العدل والإنصاف في حالة تعدد الزوجات: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُواْ

يعرفون نسبة عالية من تعدد الزوجات تصل إلى حدود 47.5 بالمائة، وهي نسبة أعلى من تلك التي نجدها عند المسلمين. كما نجد في بعض المناطق الإفريقية، في التشاد على سبيل المثال، أن نسبة التعدد عند المسيحيين الكاثوليك تتجاوز بكثير ما نجده عند المسلمين في تلك المناطق. ويبقى تعدد الزوجات اليوم في العالم العربي الإسلامي أقليا، ولا تتجاوز نسبته الـ5 بالمائة إلا نادرا. أنظر كتاب :

Youssef Courbage et Emmanuel Todd, *Le Rendez-vous des civilisations*, Seuil, 2007, p. 60

أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾.[50] يجب اعتبار هذه الآية توصية مشدَّدَة بالزواج بواحدة، وهذه الحالة هي الوحيدة التي تضمن التوازن والاستقرار في العائلة. وبعكس كثير من الأفكار المسبقة، وخاصة في العالم الإسلامي، فإن التعدد ليس أمرا إلهيا، لأن المعيارية في الزواج من وجهة نظر إسلامية هي الزواج الواحدي. ومع الأسف فإن عددا كبيرا من تفاسير القرآن في التاريخ الإسلامي ذهبوا إلى أن ذلك هو أول "إذنٍ" يقع إقراره على حساب الآية التي تشجّع على الزواج بواحدة كمعيار للزواج. بل إن التعدد أصبح حقا للرجل، بالقوة، الذي يفترض مسبقا تفوّقه وهيمنته في النظام الذكوري التقليدي.

ث) حالة فرضية "الطلاق"

يُعتبر الطلاق، وهو يأخذ في الغالب صيغة "التنازل" (اللفْظُ) في مؤلفات الفقه الإسلامي، حقًا حصريًا للرجل غير قابل للتصرف.

وإعادة قراءة هذا المفهوم انطلاقا من النص القرآني يُظهر بداية أن القرآن يتحدث عن طلاق[51]

---

[50]) سورة النساء؛ آية 129

[51]) تعني كلمة طلاق في العربية "قطع العلاقة"، وهي هنا العلاقة الزوجية

(*divorce*)، لا عن "تطليقٍ" (*répudiation*) كما نجد في ترجمات عديدة وفي بعض الأحكام الفقهية الإسلامية. ولا نجد في أي مكان من القرآن استعمال المقابل العربي للـ *répudiation* (الرفض؛ الترك) للحديث عن الطلاق. يتعلق الأمر إذا بقطع عقد الزواج. وبحسب مقاربة هرمينوطيقية (تأويلية) جديدة، نكتشف أن الطلاق حق متساوٍ تتمتع به المرأة كما الرجل، وذلك بحسب ثلاث صيغ اقترحها القرآن: الطلاق بالتراضي، والطلاق الذي يطالب به الرجل، والطلاق الذي تسعى له المرأة.[52]

ويجب التذكير أن التشريع التونسي والتشريع المغربي وحده من يحتوي على فُتوحٍ حقيقية تخص الطلاق. فقد وقع أخيرا إقرار الطلاق بالتراضي والتطليق القضائي في المدونة الجديدة للأسرة بالمغرب، في حين بقي الطلاق، في أغلب التشريعات الإسلامية، من

[52]) اعتبر ابن رشد، في عصره، أن الطلاق حق مشروع في القرآن للرجل وللمرأة (أنظر كتابه: بداية المجتهد ونهاية المقتصد، بيروت: دار الجيل، 2004. ج 2، ص 112)؛ أنظر أيضا تفاصيل أكثر حول الموضوع في فصل "مبادئ الطلاق في القرآن" في كتابنا:
Femmes et hommes dans le Coran : quelle égalité?, Albouraq, 2012

حق الرجل حصرا.[53]

ج) إشكالية الحجاب الموصوف "بالإسلامي"

تبقى مسألة الحجاب واحدة من أكثر المسائل التي أثارت الجدل سواء داخل المجتمعات ذات الأكثرية المسلمة أو في الغرب. وتمثّل هذه الموضوعة، بلا جدال، لبّ المشكلة التي تتركّب عليها مفاهيم متنوعة ومتناقضة، مثل التقاليد، والحداثة، والحرية، وجسم المرأة، وأزمات الهوية، ورهان العيش المشترك المفروض على المجتمعات المعاصرة.

بقي أن كل النقاشات التي دارت حول هذا الموضوع كان لها الفضل — لا شك – في "كشف" مشكلتين معاصرتين كبيرتين: الأولى في الغرب، وفي علاقة بالظهور المتزايد للمسلمين، وبالتالي لمكانة الإسلام في مجتمعات أصبحت متعددة الثقافات؛ والثانية في المجتمعات الإسلامية، التي لم تفعل مشكلة "الحجاب" أكثر من تأكيد وجود أزمة عميقة وخطيرة تتعلق بالهوية، تترجمها الشحنة العاطفية العالية الموجودة حول هذه العلامة، التي تحولت لتصبح وحدها رمزًا

---

[53]) تصف المدونة الجديدة للأسرة في المغرب الطلاق بأنه "قطع لعقد الزواج، يستعمله الزوج أو الزوجة سيان، كل بحسب شروطه، وبحسب حكم القاضي". (أنظر مرجع أعلاه)

للهوية الإسلامية. فنحن نجد في الخطاب الإسلامي الحالي نُزوعًا أغلبيا يُلخّص مجمل القيمة الأخلاقية للجسم في الإسلام في سلوك قانوني، تشكّل حصريا وتمركز أساسيا حول جسم المرأة.

ويعود الحديث عن علاقة الإسلام بالجسد وبقيمته الأخلاقية اليوم آليًا إلى تناول حجاب المرأة الموسوم بـ"الإسلامي"، والذي أصبح بفعل القصف الأيديولوجي رمز الإسلام وهويته ومقاومته للانحراف الأخلاقي الذي كان يُعتبَرُ خصيصة الثقافة الغربية. يبدو من الطبيعي إذا أن نلاحظ كيف حصر الخطاب الإسلامي " المعاصر" مجمل الأخلاق القرآنية حول الجسد إلى موضوعة الحجاب تلك. إن العمل على حصر مجمل الرسالة في طريقة لباس المرأة، أي في فريضة "تغطية" أو "حجب" المرأة لجسمها، أوصلنا – في العالم الإسلامي – إلى تمكين هذه العلامة الروحية من رمزية قمعية يصبح من الصعب تعديلها.

الآية الوحيدة التي تتحدث عن "الحجاب" – المصطلح المستعمل في العربية هو الخمار وليس الحجاب – هي آية أقل ما يُقال فيها أن حرية التصرف التأويلي فيها مرنة جدا. فالخمار يمكن أن يعني "غطاء للرأس" أو "وشاحا"، بينما الحجاب يعني

في العربية ستارا، نوعا من القاطع أو الحاجز، أي كل ما يغطّي شيئا أو يخفيه. ومن جهة أخرى فإن الرسالة الروحية في مجملها لا يبدو أنها تُولي أهمية كبرى إلى هذه الجزئية، كما يريد لها آخرون أن يجعلوا منها علامة الإسلام بامتياز.[54]

تقول الآية المعنية ما يلي: ﴿.... وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ..﴾.[55]

ومع ذلك يمكننا الإشارة إلى أن الآية المستعملة غالبا لتبرير القول "بوجوب" حجب النساء، والتي نجد فيها القرآن يستعمل لفظة الحجاب[56] هي التي تؤكد: ﴿يَا

---

[54]) ظهرت الخطابات المتعلقة بالحجاب بلا مراء مع بروز أيديولوجية الإسلام السياسي في العالم العربي (أنظر مقالنا "حجاب المرأة المسلمة بين الأيديولوجيا الاستعمارية والأيديولوجيا الإسلامية التقليدية: رؤية ضد استعمارية" [باللغة الفرنسية] منشور على الشبكة العنكبوتية:

www.asma-lamrabet.com/articles/voile-ou-hijab-des-femmes-musulmanes-entre-l-ideologie-coloniale-et-l-ideologie-islamiquetraditionaliste-une-vision-decoloni/

[55]) سورة النور؛ آية 31

[56]) المواضع التي يستعمل فيها القرآن مصطلح حجاب هي: سورة الأعراف؛ آية 46، وسورة الإسراء؛ آية 45، وسورة مريم؛ آية 17،

أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ [...] وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾.[57] في حين لا تعني هذه الآية سوى زوجات النبي، فهي تطلبُ من المؤمنين احترام خصوصية هذا الأخير في حياته العائلية.

لا علاقة للحجاب إذا بأي لباس إسلامي للمرأة، بل الأمر متعلق فحسب برمزية للفصل بين الحياة الخاصة والحياة العامة كان يعرفها عصر النبي، وكان الهدف من ذلك تكريس تحويل زوجاته إلى "أمّهات المؤمنين". لا بد أن نلاحظ هنا انزياحا دلاليًا بين الخمار والحجاب ظهر مع أيديولوجية الإسلام السياسي. وذاك هو ما حصل تماما مع هذا الحجاب القسري الذي أريد فرضه بأي ثمن على المرأة المسلمة، عبر استنساخه المتعمّد في سجلّ قيم الجسد في الإسلام، بُغية تبرير حبس المرأة المسلمة.

فُرض الحجاب إذًا – بمعنى "الفصل" – على المرأة المسلمة ليرسُمَ لها مكانها في المجتمع، أي لحصرها باسم الإسلام في مكانة الظلّ، بعيدا عن دائرة

وسورة الأحزاب؛ آية 53، وسورة ص؛ آية 32، وسورة فصلت؛ آية 5، وسورة الشورى؛ آية 51

[57]) سورة الأحزاب؛ آية 53

الاجتماع السياسي. كان استبدال الخمار بالحجاب تدخّلا في مجالات دلالية ومفهومية مختلفة، بل ومتناقضة، بهدف ضمان حبس المرأة، باسم الإسلام، وراء الستار، وإقصائها من الفضاء العمومي.

يبقى أن التحدي الحقيقي اليوم أمام المرأة المسلمة هو استعادةُ النَفَس التحرري لرسالة الإسلام الروحية. **وضع وشاح على الرأس ليس أمرا دينيا**، هو اختيار روحاني شخصي.

لا بد أيضا من محاولة الخروج من الرؤية الثنائية التي رافقت دائما هذه الموضوعة، والكف عن استعمال الخمار أو غطاء الرأس كمقياس لتقييم المرأة المسلمة. فبحسب الرؤية الأيديولوجية التي نتبنّاها، يذهب البعض إلى اعتباره (غطاء الرأس) مؤشرا على القمع، وبالتالي يُحكَمُ على المرأة التي لا تلبسه، ضرورةً، امرأة متحررة؛ في حين ينظر له آخرون على أنه علامة على الإيمان، ويصبح عدم ارتدائه أعراضٌ عن نقص في القناعة وضعف في الإيمان.

من الواضح إذا أن الغاية الرئيسية للقرآن هي تحريض الرجال والنساء على التحرر من كل استلاب مادي ومن كل أنواع الإغراءات، وهي خاصة بكل عصر، وبالنهاية هي ليست أكثر من إسقاطات حقيقية

للأيديولوجيات المهيمنة المتواترة عبر تاريخ الحضارة الإنسانية.

يطلب الأمر القرآني من الرجل والمرأة تحصيل ثقافة الحشمة والاحترام المتبادل، وهو ما تؤشّر له آية أخرى، تترجم لوحدها مجمل الأخلاق القرآنية ذات العلاقة بالجسد: ﴿يَا بَنِي آَدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآَتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آَيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.[58] ولا شك أن هذه الآية تلخص لوحدها ما يجب التمسك به اليوم، في ظل هذا الخراب الكبير من الاستهلاك المفرط وحب الظهور والتعالي، كخُلُقٍ أعلى للإسلام: لباس التقوى، لباس الباطن الذي ينعكس بالضرورة على ظاهر أفعال وسلوك كل رجل وامرأة.

[58]) سورة الأعراف؛ آية 26

القراءة الإصلاحية بديلا

تبيّن لنا آفاق المقاربة الجديدة للنص إلى أي درجة أصبحت فيها موضوعة المرأة بالنهاية مُختزَلَة في الآيات التي توصف بأنها اجتماعية ثقافية، وكيف أن مُجمل الرؤية الأخلاقية الشاملة للرسالة قد هُمِّشتْ لصالح هذه الآيات الخمسة أو الستّة. وقد أدت القراءة المجتَزَأَة التي أخرجت معنى الآيات عن سياقها المعياري العام إلى حبس موضوعة المرأة في تأويل حرفي ضيق، وعمدت إلى المساهمة بشكل كبير في تعهّد رؤية سلبية لدينٍ يقهر النساء، يغيب فيه مفهوم المساواة تماما.

فالرؤية التقليدية أقامت كل تأويلها على تلك الآيات الاجتماعية الثقافية، التي أصبحت منذ ذلك الحين الإطار المرجعي للقراءة الذكورية، الذي أسّس لتفسير وفهم كل العلاقة امرأة – رجل. وفي هذا الاتّجاه تقترح الرؤية الإصلاحية المعاصرة تغيير المثال (البراديغم) تغييرا جذريًا. الإطار المرجعي للقراءة الإصلاحية يجب أن يكون القيم الكونية للرسالة الروحية، والآيات الموسومة بالاجتماعية الثقافية – وهي أجوبة للسياق الاجتماعي التاريخي لعصرها – يجب أن تُقرأ في ضوء تلك القيم الشاملة، ولكن أيضا بمقياس حقوق الإنسان الكونية التي لا تتعارض أصلا مع المبادئ

الأخلاقية للإسلام.

وبما أن شرط العدل هو إحدى الغايات الأساسية للرسالة الروحية للإسلام، فإن كل آية أصبح في تطبيقها ظلمٌ لا بد أن يُعاد تأويلها، بحسب قاعدة من القواعد الجوهرية للتشريع الإسلامي: "تغيّرُ الأحكام حسب الزمان والمكان".

ذلك هو ما أوجبه أغلب العلماء، ومنهم ابن قيّم الجوزية (تـ. 1350)، الذي لخّص تلك القاعدة في قولته المشهورة: "أن مقصوده إقامة العدل بين عباده، وقيام الناس بالقسط، فأي طريق استُخرِجَ بها العدل والقسط فهي من الدين، وليست مخالفة له".[59]

الخاتمة

الحاجة ملحّة اليوم في العودة إلى الرسالة الروحية للإسلام التي تقدّم أفقا واسعا من الفهم لإقامة العدل بين الرجال والنساء. لذلك فإن إعادة قراءةٍ إصلاحيةٍ جديدة للنصوص، وإصلاح عميق للفقه الإسلامي — وهو المصدر الأساسي للتمييز وعدم المساواة تجاه المرأة

[59]) http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?idfrom=8&idto=19&bk_no=42&ID=5

— ضرورية وأولوية في هذا المستوى حتى يتمكن الإسلام من مجاراة التحديات المعاصرة، أن يكون معاصرا.

إن مشاركة المرأة في هذه الورشة الضخمة مسألة جوهرية. لا بد أن تستعيد النساء القول؛ هُنّ بدأن القيام بذلك اليوم، ولا يقمن في الحقيقة إلا باستعادة ما اغتُصبَ منهن طيلة قرون، أي الحق في مساءلة المرجعية الدينية وتأويلها، وبالتالي الحق في التحرر والانعتاق باسم تلك المرجعية. يتعلق الأمر إذا باستعادة نسوية حقيقية لتأويل النصوص الدينية، التي بقيت طويلا محتكَرَة من الرجال، ولكن أيضا بحتمية ديمقراطية، بما أنه يمكننا هنا طرح سؤال حاسم: إذا كان العدل والقسطاس من غايات القرآن التي لا يرقى إليها الشك، كما يُبيّن ذلك التحليل الإصلاحي للنصوص المقدسة، فلماذا لا تنعكس تلك العدالة والمساواة في القراءات والخطابات والتعاليم الدينية التي تدير العلاقات بين الرجل والمرأة في أغلب المجتمعات المسلمة ؟

تبقى مسألة الإصلاحات الدينية، وخاصة المتعلقة بموضوعة المرأة، شديدة الارتباط بممارسة سلطة ديمقراطية حقيقية، وسيكون من الوهم — لا شك —

الإدّعاء بالقدرة على تحليل موضوعة المرأة بمعزل عن مجموع المشاكل التي تُفخّخ المجتمعات المسلمة بشكل عميق. إن العمل على هذين المستويين – الديمقراطية والإصلاح الديني – هو ما سيمكّن التحولات الاجتماعية من فرصة التحقّق الفعلي في واقع اجتماعي يبقى فيه الدين مرجعية لا يمكن تجاوزها.

إن هذا الإحياء النسوي صلب الإسلام الإصلاحي هو بصدد شَقّ مسلك، طريق ثالثة حقيقية يصبح البحث فيها عن معنى روحي هي مسألة قيمٍ بامتياز، والتشكيك في التقاليد الدينية الذكورية هو تشكيك في أسس الظلم الاجتماعي والسياسي في المجتمعات ذات الأغلبية المسلمة. هناك تكمن، لا شك، القوة الرمزية لذلك التجديد.

قيم الإسلام

قيم الإسلام 3
الإنسانية والإنسية في الإسلام
أحمد بويردان
أفريل 2015

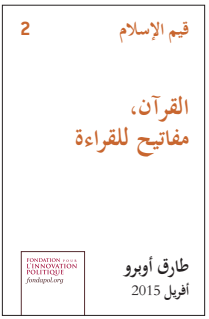
قيم الإسلام 2
القرآن، مفاتيح للقراءة
طارق أوبرو
أفريل 2015

قيم الإسلام 1
التعددية الدينية في الإسلام، أو الوعي بالغيرية
إيريك جوفروا
جانفي 2015

قيم الإسلام 6
الإسلام وقيم الجمهورية
سعد الخياري
جوان 2015

قيم الإسلام 5
الإسلام والميثاق الاجتماعي
فيليب موليني
أوت 2015

قيم الإسلام 4
التصوف: روحانية ومواطنة
باريزا الخياري
جوان 2015

قيم الإسلام 9
الإسلام والديمقراطية: الأسس
أحمد الريسوني
نوفمبر 2015

قيم الإسلام 8
النساء والإسلام، رؤية إصلاحية
أسماء المرابط
أكتوبر 2015

قيم الإسلام 7
التربية في الإسلام
مصطفى الشريف
أكتوبر 2015

قيم الإسلام 10
الإسلام والديمقراطية في مواجهة الحداثة
محمد بدّي ابنو
ديسمبر 2015

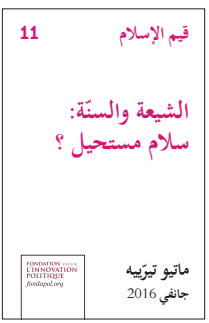
قيم الإسلام 11
الشيعة والسنّة: سلام مستحيل ؟
ماتيو تيرّيه
جانفي 2016

Fondation pour l'innovation politique

مؤسسة التجديد السياسي

ثنك تانك ليبرالي، تقدمي أوروبي

تقدم مؤسسة التجديد السياسي فضاء مستقلا من الخبرة الفنية والتفكير والتبادل، متوجهة نحو إنتاج الأفكار والمقترحات وتوزيعها. وهي تساهم في تعددية الفكر وتنمية الحوار العمومي ضمن توجه ليبرالي، تقدمي أوروبي. وتعطي المؤسسة الأولوية إلى أربعة رهانات كبرى: التنمية الاقتصادية؛ الإيكولوجيا؛ القيم؛ والرقمية.

يضع الموقع الرسمي www.fondapol.org على ذمة الجمهور جميع أعماله. وتجعل منصّتها المعلوماتية " Data fondapol " مُتاحة للجميع للولوج واستعمال المعلومات المُجَـمَّعَة في مختلف مراحل الاستبيانات وبمختلف اللغات، عندما يتعلق الأمر بدراسة عالمية.

وبالإضافة إلى ذلك فإن موقعنا الإعلامي " Trop Libre " يسلط نظرة نقدية يومية على الأحداث اليومية وحراك الأفكار. " Trop Libre " تقترح أيضا يقظة مستمرة لمتابعة تداعيات الثورة الرقمية على الممارسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وذلك عبر تخصيص خانة خاصة في الموقع يحمل تسمية " Renaissance numérique " (الإحياء الرقمي)" وكانت تسمى سابقا: Politique 2.0.

مؤسسة التجديد السياسي مؤسسة غير ربحية، وتخضع لنظام الخدمة العامة. وهي مستقلة ولا تخضع في تمويلها إلى أي حزب سياسي. مواردها عمومية وخاصة، وتتمتع بدعم من الشركات ومن الخواص، وبشكل رئيس من تنمية نشاطاتها.

La Fondation pour l'innovation politique

Les données en open data

data.fondapol

Le site internet

www.fondapol.org

Les médias

fondapol.tv

trop libre

Une voix libérale, progressiste et européenne

11, rue de Grenelle
75007 Paris – France
Tél. : 33 (0)1 47 53 67 00
contact@fondapol.org